السيّاب ينادي أفياء جيكور

قراءة في شعر المكان عند السياب[1]

أ.د صالح خليل أبو أصبع

[إن أعظم الشعراء في عصر من العصور هو الشاعر الذي يقبل أكبر جزء من الحياة في عصره ويتساءل على نحو أعمق من غيره ما معنى هذه الحياة. وإن أعظم الشعراء المحدثين هو أكثرهم قدرة على قبول الظواهر الوحشية غير الشعرية – كالحرب والأحياء الفقيرة والاستبداد – وعلى إظهارها كأشياء تعبّر عن الروح الإنسانية حتى وإن كانت تنفيها. فجميع الظروف التي تخلقها الإنسانية مهما كانت هدّامة أو غاشمة إنما هي لغة الظواهر ليس إلا.] ستيفن سبندر

- المدخل : صورة أولى

أولاً : جيكور مكان ذات بعدين عند السيّاب

أ. جيكور (الأم -الملاذ) وخيبة الأمل

ب.قرية جيكور المكان الأليف مقابل المدينة المكان غير الأليف / المعادي

- ثانياً: جيكور و المرض والموت عند السيّاب

أ. جيكور ومرض السيّاب

ب. جيكور واستئناس الموت عند السيّاب

- ثالثاً: جيكور والزمن

أ. الزمن الماضي

ب. الزمن الحاضر

ج. الزمن الاتي/ المستقبل

- رابعاً: أبعاد فنية

أ. الصورة في القصائد الجيكورية

ب. التراث الديني والتراث الأسطوري في القصائد الجيكورية

ج. اللغة والموسيقى في القصائد الجيكورية

---

[1] *بحث بعنوان: السيّاب ينادي أفياء جيكور – قراءة في شعر المكان ندوة قراءات نقدية في شعرية السياب، جامعة فيلادلفيا بالتعاون مع رابطة الكتاب الأردنيين، 2014/11/16.*

السيّاب ينادي أفياء جيكور

قراءة في شعر المكان عند السياب

أ.د صالح أبو أصبع

جامعة فيلادلفيا

- المدخل : صورة أولى

في ذكرى رحيله الخمسين يقف المرء إجلالاً لشاعر قضى شاباً – ولد في عام 1926 وتوفي في عام 1964- بعد أن قدّم لديوان الشعر العربي مجموعة من الدواوين التي أوقدت مع دواوين غيره من رواد الشعر الحر شعلة حركة الشعر الحر في الوطن العربي . وتقف هذه القراءة في باب التحية لذكراه وتقديراً لإنجازه الإبداعي ولشخصه الذي مَثَّل صورة الإنسان المعذَّب، والذي حمل في جوانبه آلامه الشخصية وآلام أمة بأجمعها ، وتقديم صورة عن شخصيته ذات الروح المشبعة بالأسى والحزن والألم البدني والنفسي يمكنها أن تسهم في فهم جانب من إبداعه ، ولعل أفضل ما يكشف جوانب شخصية مراسلاته الشخصية التي فيها يظهر صورة صادقة لمعاناته مع المرض وهو في العشرينيات من عمره ويعبر فيها عن حرمانه من الحب ، ففي رسالة مؤرخة 1942/11/23 يكتبها وعمره ستة عشر عاماً لخالد الشواف يقول :

(أأنت مثلي محروم من العاطفة، لا يرى قلباً يخفق بحبّه ؟ لا، فأنت – وإن صدقت في زعمك – لست مثلي، وأرجو أن لا تكون مثلي إن شاء الله... حُرمت عاطفة الأمومة وأنا ابن أربع ... ولكنني لم أحرم من صدر يضمني ويحنو علي ولكنني لم أ حرم من جدتي ....؛ ومرت السنون وأنا أهفو إلى الحب، ولكني لم أنل منه شيئاً ولم وأعرفه ... وما حاجتي إلى الحب ما دام هناك قلب لجدتي يخفق بحبي .... أفيرضى الزمن العاتي ... أيرضى القضاء أن تموت جدتي – أوآخر هذا الصيف - ؟ ... فحرمت بذلك آخر قلب يخفق بحبي ويحنو عليّ.....)[2].

وبعد أربع سنوات في 1946/4/20 يكتب ابن العشرين ربيعاً رسالة للصديق نفسه ما يتبدّى لنا فيها حالته اليائسة وتَلبّس الموت لأفكاره حيث نذر نفسه للألم والشقاء واليأس والفناء :

(أي خالد ! كم عاهدت نفسي، في سكون الليل العميق، أن أخفت نغمة اليأس في أشعاري وأمحو صورة الموت من أفكاري، حتى لا تسمع الآذان ركزاً من تلك، ولا تبصر العيون خطأ من هذه. لكنني - واحسرتاه - عدت بصفقة الخاسر، وحظ الخائب، وقد نذرت نفسي للألم والشقاء، واليأس والفناء).[3]

الهوامش

[2] ماجد السامرائي جمع وتقديم (*1975*) رسائل السياب. بيروت : دار الطليعة ص. *11*)

3 المرجع نفسه ص.*39*

ويدهشنا هذا الحس الفاجع والتشاؤم الذي يتغلغل نفسه وهو في مطلع الشباب ، حيث كانت فكرة الموت تخيم على روحه ويتمناه ، ومن خلال حلمه يصف القبر الذي يطويه من خلال حلم جاء في رسالة كتبها عام 1946 يبرز فيها أفكاره التشاؤمية بصور فنية شاعرية وهي أشبه بقصيدة.

- (**إن حلماً ، مَدَّ جناحيه في ليلة سوداء مكفهرة، على جفني الخضلين، يعطيك صورة بنية عن خواطري المحمومة ، وأفكاري المشؤومة: ضباب شفيف، ترقص فيه مقبرة القرية، كأنها فوق جناح جريح، ينفضه الشوق إلى موضع ، خلف التلال... ثم يركن الرقص إلى سكون كئيب .... يحتضنه الغبش الحزين، وهناك ... عند السدرة النائمة.... قبر مستوحد غريب، رأيت أني راقد فيه، تحت الحصى والتراب، في ظلمه بلهاء، ما أسعفها لون من الألوان... يكاد ثقل الثرى يخنقني خنقاً، لكنني من برجي الدامس، استشرف الدنيا،** يدغدغها الربيع الباكر، فأبصر الأوراق، تنمو بطيئاً ... بطيئاً، والبراعم تتثاءب... كسلى ... عن الزهر الأبيض، وعن ألوان لا تحصى ، فأهتف، من أعماق اللحد البارد: رباه ... أني الربيع النضير، يطويني القبر !).

(كنت، طوال هذه الفرقة الفكرية، أفتكر بالموت ، وأتمناه، تظلم عقلي الملتهب ، بنار الثورة الحاقدة، إن ظننت أنني عايشته بين هذه الخواطر ... هيهات، هيهات، للعاطفة كنت أعيش، ومن ينبوعها الكدر، أو جدولها الصافي، أترعت أقداحي ....)[4].

وفي رسالة بعثها إلى صالح جواد الطعمة بتاريخ 1947/5/7 يشكو له مرضه وفقره وكان يرى أن موته لن يكون عاجلاً، ويرى فيه راحة له، لكن قدره ألا يرتاح، وكان يشعر أنه لن يجتاز محنة المرض وهذا ما كان .

(مضى أكثر من أسبوع، منذ أن خططت السطور الأولى من هذه الرسالة، وهأنذا أعود إلى الكتابة مرة ثانية بعد فترة من المرض الملح، والشفاء الكاذب – وقد انتكست الآن، بعد أن ذهبت جهود الأطباء هباء، وذهب معها ما أملك من دراهم قليلة وأصبحت انتظر ما يأتي به الغد من جديد والداء يزداد عنفاً وشدة ! ولكني مطمئن إلى شيء واحد: هو أنني لن أموت في القريب العاجل، لأن في الموت راحة، وقد قدر لي ألا أرى راحة ، وأن أجتاز محناً كثيرة غير هذه المحنة ....)[5].

وفي نفس الرسالة يصف جمال الربيع الذي تتفتح معه الأرواح باستثناء روحه التي لا تحس بالربيع بل وتشعر كأنه الشتاء :

(أما أنا فلا أحس للربيع وجوداً – " هو الربيع .... ولكن عند أهليه" ولست من أهل الربيع، نعم إن الريف تكسوه حلل من سندس، كما يقولون، وصحيح أن مزارع النخيل وغاباته مزدانة بالصفراء والزرقاء من الأزاهير، وأن أشجار الرمان مُورقة بالجلنار – ولكنني في شتاء حزين، لا أزال أتمثّله في خيالي: المطر ينهمر، وقطرات منه تتساقط على زجاج النافذة، وتسيل في بطء وكآبة !!! ولماذا أرهقك وأرهق نفسي بهذه الصور المفجعة ؟[6]

4 المرجع نفسه ص- ص. *49-50.*
5 المرجع نفسه ص-*54*
6 المرجع نفسه ص-*53*

ويبرز لنا من خلال رسائله عدة عناصر أساسية تتكشف جوانبها في ثنايا التحليل :

1. سيطرة فكرة الموت عليه .
2. المعاناة من المرض والفقر الذي لم يمكّنه من تأمين نفقات علاجه .
3. الحرمان من الحب.
4. الريف باعتباره مكاناً جميلاً للعاشقين .
5. رؤيته للإبداع الشعري من زوايا عدة
    أ. أهمية الموسيقى في الشعر.
    ب. استخدام الموروثات الشعبية والأسطورية.
    ت. أهمية العاطفة في إنتاج الصورة.
    ث. موقفه من الشعر الذاتي والملتزم

ونستعرض في هذه الورقة جوانب من تصويره للمكان في قصائده التي تناولت جيكور عنواناً ومادة وعلاقتها بالمكان والموت والمرض والزمن ،

أولاً : جيكور مكان ذات بعدين في شعر السيّاب

يأخذ المكان حيزاً كبيراً من شعر السيّاب الريفي ابن جيكور ، ومراجعة واحدة لعناوين قصائده تقودنا إلى فهم أهمية المكان لدى شاعرنا، فأكثر من خمس وأربعين قصيدة معنونة بعنوان يمت إلى المكان بصلة ، ومن بينها تسع قصائد عناوينها مخصصة لجيكور القرية العراقية الجنوبية على نهر بويب ، قرية الشاعر التي احتضنت ولادته ، وحملت ذكرياته أحلامه، واحتضنت قبريْ أُمَّه وجدَّته لتظل ذكرياته فيها مخزونة في ضميره حيثما حلّ وارتحل ، تواسيه في غربته وهو بعيداً عنها، سواء كان ذلك في المدينة أو في بلاد الغربة أثناء علاجه في بريطانيا. وكانت جيكور حاضرة في العديد من القصائد مثل قصيدة "نسيم من القبر" وقصيدة "أحبّيني" و قصيدة " سفرأيوب " وقصيدة " القن والمجرّة".

ويلفت انتباهنا أن المكان لدى السيّاب يسيطر عليه بعدان يشكلان طرفي مفارقة كبيرة في مجمل أعماله هما القرية والمدينة .كما نجده أيضا يُحمِّل جيكور بعدين متناقضين جيكور البهجة والذكريات الحلوة حيث البداية والإنطلاقة والميلاد مقابل جيكور التي فقد فيها أمه وجدته وعانى فيها من الحب الخائب .

" ولعل الأضداد التي نراها اليوم في شعر السياب هي من مخلفات الأضداد الأولى التي عاشها السياب وسطّرها في شعره، فبوسع القارئ أن يرى جيكور مأتماً ووطناً وبيت جد، ومنزل أقنان، ونوافذ لوفيقة،

وهضاب راعيات، ففي جيكوره رسم معالم القادم بريشة ما كان يعيشه، وهذه المشاهد لا تمحى من خيال سيّابنا الطفل بالدرجة الأولى، وقد برع في رسمها وتذكرها سيّابنا الشاعر في الدرجة الثانية" 7.

❖أ - جيكور المكان(الأم -الملاذ) وخيبة الأمل

كانت جيكور بالنسبة للشاعر ليست مجرد مكانٍ عاش فيه ، فهي بالنسبة له ذكرى تربطه بقبر أمه التي افتقد حنانها، و"هالة " الراعية التي أحبها ، وجدَّته التي عوضته بعض الحب الذي افتقده منذ طفولته وبيت جده (بيت الأقنان) . إذن فجيكور مكان تَحلَّ في روحه كما حَلَّ هو فيها ، ومن هنا اختلف تعامله مع المكان عما كان عليه لدى الشعر القديم والشعر التقليدي في التعامل مع المكان حيث البكاء على الأطلال .

وهنا يمكننا أن نسمع صوت الشاعر وهو ينفث أنينه المستجيب لصوت أمه المدفونة في جيكور، وها هو قبرها يتنفس ويهمس له ويبكيه في قصيدة نسيم من القبر:

نسيم الليل كالآهات من جيكور يأتيني
فيبكيني
بما نفثته أمي فيه من وجد و أشواق
تنفس قبرها المهجور عنها قبرها الباقي
على الأيام يهمس بي : " تراب في شراييني
ودودٌ حيث كان دمي و أعراقي
هباء من خيوط العنكبوت و أدمع الموتى
إذا ادكروا خطايا في ظلام الموت ترويني
مضى أبد وما لمحتك عيني" (الأعمال الكاملة : نسيم من القبر 672)

فأصالة الشاعر كما يرى ستيفن سبندر إذن هي أولاً وأخيراً في شجاعته الوجودية التي تمكّنه من أن يكون صادقاً في إدراكه، مخلصاً لطبيعته. ولا توجد أصالة حقيقية غير هذه (وإن كان بعض الشعر غير الأصيل قد يبدو للقارئ أصيلاً إلى حد كبير وما هذا إلا لأن القارئ لا يألفه). لكن الأصالة ليست في جدة الشكل والأسلوب والموضوع وإنما هي في حساسية الكاتب.[8]

و تجارب الشاعر المُرّة والذكريات التي اختزنها في طفولته التي لا تنمحي من خياله هي المبرر الذي يفسر لنا رؤيته الفنية لغربته ورؤيته المتشائمة واحتفاءه الغامر بالموت ،

7علي ياسين عبيدات (2014):زوايا من نصيب جيكور في شعر السياب (في طفولة السياب المبكرة)
http://rashashnews.com/2014/02/18/%D8%B2%D9%88%D8%A7%D9%8A%D8%A7%D9%85%D9%86%D9%86%D8%B5%D9%8A%D8%A8%D8%AC%D9%8A%D9%83%D9%88%D8%B1%D9%81%D9%8A%D8%B4%D8%B9%D8%B1%D8%A7%D9%84%D8%B3%D9%8A%D8%A7%D8%A8-%D9%81%D9%8A-%D8%B7%D9%81/

[8]ستيفن سبندر الحياة والشاعر ترجمة دكتور مصطفى بدوي القاهرة مكتبة الأنجلو المصرية ص-165-166

(... كانت مأساة السيّاب تكمن في غربته المبكرة: غربته الأبدية عن أمه وعن أسرته، وعن جدّته التي كانت بمثابة الأم في طفولته، مما جعله يعيش حالة صدام بين القيم والواقع بين الماضي والحاضر، فولّد لديه قلق البحث عن مثل وقيم فنية واجتماعية جديدة).[9]

وها هو يعلن أنه يتمنى لو أنه يمتلك صوتاً كنفخ الصور ليوقظ الموتى، ولكنه يعلن أن قسوة هدّا المرض تفكك جسده وجعلته أشبه بالكسيح حيث لم يعد يقوى على المشي إذْ انحنت ساقه ويصبح عشقه الموت له ما يبرره حيث نفثت أمه الوجد والشوق وهي في القبر لأن أُمّه جزءٌ منه.

ليت لي صوتا
كنفخ الصور يسمع وقعه الموتى هو المرض
تفكك منه جسمي وانحنت ساقي
فما أمشي و لم أهجرك إني أعشق الموتا
لأنك منه بعض أنت ماضي الذي يمض
إذا ما اربدت الآفاق في يومي فيهديني. (الأعمال الكاملة المجلد الأول : نسيم من القبر 672- 673)

أما رَنَّ الصدى في قبرك المنهار من دهليز مستشفى
صداي أصيح من غيبوبة التخدير أنتفض
على ومض المشارط حين سَفَّت من دمي سفَّا
و من لحمي أما رَنّ الصدى في قبرك المنهار
و كم ناديتُ في أيام سهدي أو لياليه
أيا أُمّي تعالي فالمسي ساقي و اشفيني (الأعمال الكاملة المجلد الأول: نسيم من القبر 673)

وها هو يقدم وصية احتضاره وهو يودع بلده وهي رسالة حب للعراق ، يدعو فيها شعبه للتمسك بوطنهم والحذر من قوى الظلم فيه التي تَدُبّ على ثرى العراق كالأفعى متمنياً لبلده نهارا مشرقا - الذي يعتبره جنة ذات نعم وهو خير البلاد – وهو يصف حالته بصورة لجسدٍ متداع مثل بيت نخرته الرياح.

أنا قد أموت غداً، فإنّ الداء يقرض، غَيْرَ وانِ ،
حبلاً يشدّ إلى الحياة حُطامَ جسمٍ مثلِ دارِ
نَخَرتْ جوانبها الرياحُ وسقْفَها سيلُ القطارِ ،
يا إخوتي المتناثرين من الجنوب إلى الشمالِ
بين المعابر والسهول وبين عالية الجبالِ ،
أبناء شعبي في قراه وفي مدائنه الحبيبةَ ...
لا تكفروا نِعَمَ العراقِ ...
خير البلاد سكنتموها بين خضراءَ وماءَ ،
الشمس ، نور الله ، تغمرها بصيفٍ أو شتاء ،

9 محمد رضوان (2001) :مملكة الجحيم دراسة في الشعر العربي المعاصر (الحكاية نموذجاً) من منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق – ص84

لا تبتغوا عنها سواها .
هي جنّةٌ فحذارِ من أفعى تدبّ على ثراها .
أنا ميتٌ ، لا يذب الموتى . وأكفر بالمعاني
ان كان غير القلب منبعها .
فيا ألقَ النهارِ
أغُمرْ بعسجدك العراق ، فأنّ من طينِ العراقِ
جسدي ومن ماء العراق ... (الأعمال الكاملة المجلد الأول: وصية من محتضر ص282-283)

إن هذه القصيدة الوداعية لشعبه ووطنه تنبع من رؤيته لجيكور – الرمز ، المتمثلة بالقرية – الأم التي مهما كانت حالتها فإنها تحتفظ بذكرى لديه تتمثل فيها كل مظاهر جمال الطبيعة التي يعود إليها كسيحاً ليلثم كل ما فيها من أزهار وماء وتراب.....

جيكور تلك كما يقول هي أمه :

تلك أمي و إنْ أجئها كسيحا
لاثماً أزهارها و الماء فيها و الترابا
و نافضا بمقلتي أعشاشها و الغابا
تلك أطيار الغد الزرقاء و الغبراء يعبرن السطوحا
أو ينشرن في بويب الجناحين كزهر يفتح الأفوافا
ها هنا عند الضحى كان اللقاء
و كانت الشمس على شفاهها تكسر الأطيافا
و تسفح الضياء
كيف أمشي أجوب تلك الدروب الخضر فيها و أطرق
الأبوابا ؟
أطلب الماء فتأتيني من الفخار جرة
تنضح الظل للبرود الحلو قطرة
بعد قطرة (الأعمال الكاملة المجلد الأول : جيكور أمي656-657)

و نتيجة لرؤيته للريف يصبح الفارق بين المدينة وجيكور كبيرا . ويصف السيّاب ما أسماه تجربة لذّة الحب الريفي الخالص التي يرى أنها ستجعل ساكن المدينة يشتاق إلى الريف لو غاص بكل روحه في قرارة هذا الهوى الريفي.

(أجوز هذه الأيام تجربة لذّة، أو قل، وقت في حب جديد، من نوع جديد ، لا خبرة لي به من قبل... وهنا أوقف اليراع، لأني أخال أنك اتجهت بأفكارك شطر (بودلير).... كلا لا شيء من هذا ! ..... إنه الحب الريفي الخالص، العريق في ريفيته، يسف دون أن يلامس التراب، ويسمو، فلا يجوز السحاب، هذا الحب الرائع، تؤطره أجواء قروية، من الطبيعية،

والأزياء، والأساليب من مواضع اللقاء، وخلوات الغرام، من (مراحل) اللذة، إلى نهايتها المتوقعة، زواج المعبودة، أو افتضاح الحب وحبس الطائر في فقصه .... كل تلك الأشياء تجعلني أبذل كثيراً من الوقت في سبيل هذا النوع الساحر من العشق.آه لو فرغت من كل شاغل !! لأبرزْتُ هذا الحب، في قصيدة تجعل ساكن المدينة يشتاق لو غاص بكل روحه في قرارة هذا الهوى الريفي..... روضان جاران.... وفتى وعذراء، وطفلة أو طفل، هذا مسرح القصة وهؤلاء هم أبطالها.... وقد يزيد الأبطال عدداً ... غادة أخرى أو غادتين، زهرة في ورقتين عطرتين، تحيطها الأكمام .....). 10

❖ب - قرية جيكور المكان الأليف مقابل المدينة المكان غير الأليف / المعادي

تعني (جيكور) القرية بالنسبة للشاعر المكان الأليف حيث الذكريات الجميلة والنقاء والبراءة والدفء والحياة البسيطة الجميلة والحب والعطاء والحرية، في مقابل المدينة التي تمثل المكان غير الأليف، فهي توحي بالزيف والقسوة والتكبيل والضياع والحزن والقتل والكذب والحقد والمادية. هنا يمكننا أن نتابع أوجه التضاد في استخدام المكانين ليشكلا جوهر المفارقة في شعر السيّاب .

تكمن المفارقة بين القرية (جيكور) المكان الأليف الذي يمنح الشاعر الدفء والحنان في مقابل المدينة المكان المعادي الذي يخنق الروح ويجمد الإحساس لدى الإنسان.

ويرى حبيب مونسي أن المدنية أعادت " ... تشكيل الطلل في الشعر العربي الحديث. فلم يرتبط عندها بالرحلة، ولم يكن غرضا سريعا ما ينصرف عنه الشاعر إلى غيره، كانصرافه من موقفه ذاك إلى وجهته التي أخرجته من قومه. وإنما قدمت المدنية الطلل في ثوب آخر تجدد به عهده. لقد صار الطلل مكانا هادئا، يقع خارج دورة الزمن، خارج الحركة الجنونية المتسارعة المتدافعة للحياة، خارج الصخب والضيق. وكأن الطلل عزلة الزمن في الزمن، وعزلة المكان في المكان. تمر عليه فإذا بك تستشعر برودة الموت، وخلو الحياة..[11]

ويقارن شاعرنا بين جيكور والمدينة التي يصفها بالتصنع والجمود وحياتها باردة كالرخام ليست طبيعية، إذ أن أشجارها من رخام ، وليلها لا ينام ذلك الليل الذي جعله الله للإنسان سكنا، بينما كانت لجيكور صورة مختلفة، ففصولها مختلفة الألوان وسماؤها أشبه بحقل من الغيوم :

أشجارها دائمة الخضرة
كأنها أعمدة من رخام
لا عرى يعروها و لا صفره
و ليلها لا ينام
يطلع من أحداقه فجره
لكن في جيكور للصيف ألواناً كما للشتاء (الأعمال الكاملة المجلد الأول: جيكور وأشجار المدينة 633)

ويَقدِّم صورة لجيكور مختلفة عن تلك المدينة التي كان شجرها كالرخام الذي يبدو جميلاً، ولكن لا حياة فيه ، في المقابل كانت الطبيعة في القرية تضج بالحياة، فالنجوم في جيكور تهمس بالأنغام، وتولد فيها

---

[10] رسائل السياب المصدر سبق ذكره ص 50

[11] د. حبيب مونسي 2001:فلسفة المكان في الشعر العربي قراءة موضوعاتية جمالية دمشق: اتحاد الكتّاب العرب ص :36

الزهور، وتخفق الأجنحة، وسماؤها حقل من الغيوم تمص أزهاره غناء الطيور ، ولكن جمال الطبيعة الآسر هذا لا يُولّد لدى الشاعر سوى الألم، فأنغام غناء الطيور كأنها سكاكين تجرح قلبه، ولكنه لا يرغب في أن تكون حال جيكور حال قلبه المجروح، فهو يرتدّ إلى جيكور لتكون نقيضاً لحاله ، فها هو الليل فيه تهمس النجوم التي تُوّلد أنغاماً مُزهرة، وتخفق الأجنحة إيذاناً بالحياة المفعمة بالحركة :

وتغرب الشمس كأن السماء
حقل يمص الماء
أزهاره السكرى غناء الطيور
ناحلة كالصدى
أنغامه البلور
كأن فيها مدى
يجرحن قلبي فيستنزفن منه النور
و تغرب الشمس و هذا المساء
أمطُرُ في جيكور
أمطُرُ ظلا نثَّ صمتا مساء
غاف على جيكور
و الليل في جيكور
تهمس فيه النجوم
أنغامها تولد فيه الزهور
و تخفق الأجنحة (الأعمال الكاملة المجلد الأول : جيكور وأشجار المدينة 633-634)

ويظهر وصفه لجيكور من خلال تقديم صورة مفارقة للمدينة ، وهذه المفارقة تظهر عمق روابطه بالقرية في مقابل عُسف المدينة التي تلتف دروبها حول الشاعر ، فتمضغ قبله وتجعل الشاعر لا حول له ولا قوة، إذ أنه لا يملك أدوات القوة للصراع إذْ أنَّ يُمناه لا مخلب لها كي تصارع شرور المدينة، التي تشعل في روحه الحقد، ولا يملك قبضة قوية لابتعاث الحياة.
وتظهر حدة التناقض بين المكانين في قصيدة جيكور والمدينة التي يرى دروبها دروبا عدائية للإنسان وكأنها نيران تأتي على الحقول وتحرق الريف في أعماق الشاعر، ويحلم بأن يكون بديلا للمدينة بناء القرى على ثراها فالمدينة بالنسبة له كافرة :

و تلتفّ حولي دُروبُ المدينة :
حبالاً من الطين يمضُغْنَ قلبي
و يُعطين عن جمرة فيه طينة
حبالا من النار يجلدن عرى الحقول الحزينة
و يحرقن جيكور في قاع روحي
و يزرعن فيها رماد الضغينة
دروب تقول الأساطير عنها

على موقد نام ما عاد منها
و لا عاد من ضفة الموت سارِ
كأن الصدى و السكينة
جناحا أبي الهول فيها، جناحان من صخرة في ثراها دفينة.
فمن يفجر الماء منها عيونا لتبنى قرانا عليها ؟
ومن يرجع الله يوما إليها؟ (الأعمال الكاملة المجلد الأول: جيكور والمدينة 414-415)

و جِيكور من دونها قام سور
و بوّابة
و احتوتها سكينة
فمن يخترق السور ؟ من يفتح الباب ؟ يدمي على كل قفل يمينه ؟
و يمناي لا مخلب للصراع فأسعى بها في دروب المدينة
و لا قبضة لابتعاث الحياة من الطين
لكنها محض طينة
و جِيكور من دونها قام سور
و بوّابة
واحتوتها سكينة (الأعمال الكاملة المجلد الأول: جيكور والمدينة 419)

(وتعود جيكور من جديد تصافح رؤيا الشاعر حزينة جميلة رغم حزنها، يلامس الأصيل ذرى النخل فيها بشمس ذهبية حزينة، والدرب الخفي الذي يربطه بجيكور درب غير مستقر، فهو يلوح ويختفي كومض البروق، ثم يعود من جديد مضيئاً ألاقاً حتى ليضيء المدينة كلها، ولكنه في كل حال يظل حلماً لا يعيش إلا في خيال الشاعر، أما على المستوى الواقعي فإن جيكور تظل نائية عن الشاعر تفصل بينه وبينها الأسوار والأبواب التي يدرك بوعي أنه عاجز – على المستوى الواقعي – عن اختراقها، فقد اغتالت المدينة كل قوى المقاومة والنضال لديه، وحولت يديه من قبضة لابتعاث الحياة من الطين إلى محض طينة، كما حولت من قبل الجمرة المتوهجة في قلبه إلى طينة خامدة.)[12]

ويرى د. علي عشرى زايد أن قصيدة جيكور والمدينة تقوم على "مفارقة بين القرية والمدينة إذ يقول : (... يقوم بناء هذه القصيدة على مفارقة تصويرية ضخمة طرفها الأول جيكور بكل ما تمثله من معاني الروحانية والدفء والظل والأمان، وطرفه الثاني المدينة بكل ما ترمز إليه من معاني المادية والقسوة والجهامة والجفاف، وقد كان منطق المفارقة وإبراز التناقض هو الذي يحكم بناء القصيدة برمته، حيث دعم الشاعر هذه المفارقة الكبرى التي قام عليها بناء القصيدة كله بمجموعة من المفارقات الجزئية، ووضع طرفي المفارقة الأساسيين في علاقة إيجابية، يتفاعلان في إطارها ويتحاوران، ومن خلال تفاعلهما وحوارهما المستمر ينمو بناء القصيدة ويتطور وتتوالد صورها ورموزها ومفارقات الجزئية، وعلى الرغم من أن صوت المدينة في الحوار هو

12 دكتور / علي عشرى زايد(1988) قراءات في الشعر العربي المعاصر . القاهرة : دار الفكر العربي ص- ص 130

الأكثر ارتفاعاً وبروزاً فإن صوت جيكور – بما أكسبه الشاعر من نبرات جلال ودفء وإنسانية – يظل هو الأكثر عمقاً والأقوى تأثيراً، رغم أن القصيدة كما رأينا تنتهي وقد انتصر – على المستوى الواقعي – صوت المدينة وانتهت جيكور سجينة محاصرة "من دونها قام سور، وبوابة، واحتوتها سكينة [13]

ثانياً: جيكور و المرض والموت عند السيّاب

❖ أ- جيكور ومرض السيّاب :

من يتتبع صور الألم وروح التشاؤم لدى السياب سيجدهما يمثلان مرضه المبكر ، وما عاناه من الآم مِمّا قاده إلى الاحتفاء بالموت في العديد من قصائده.

وتتجلى شاعرية السياب في مقدرته على تصوير الواقع المرير، و الغوص في تصوير معالم معاناة الذات الشخصية، لينسحب الأمر بالنسبة له إلى صراع يتجلى دوماً في ثلاث حلقات أساسية متفاعلة هي :

- حضن القرية الدافئ التي احتضنت قبْرَيَّ أمّه وجدته،
- والخلاص من ألم المرض الذي ينهش جسده ،
- والموت الذي ينتظره مع برودة القبر.

ولذا - حاله حال الشعراء الرومانسيين - يلجأ في مرحلة تالية من حياته إلى الشعر الذاتي الخالص، بعيدا عن الشعر الملتزم ، الذي قدّم منه الكثير قبل انسحابه من الحزب الشيوعي ، كما صَرّح بذلك في رسالة له يقول فيها :

(لا أكتب، هذه الأيام، إلا شعراً ذاتياً خالصاً، لم أعد ملتزماً، ماذا جنيت من الالتزام ؟ هذا المرض وهذا الفقر ؟ لعلي أعيش، هذه الأيام، آخر أيام حياتي، أنني أنتج خير ما أنتجته حتى الآن، من يدري؟ لا تظن أنني متشائم، العكس هو الصحيح ، لكن موقفي من الموت قد تغير، لم أعد أخاف منه، ليأتي متى ما شاء، أشعر أنني عشت طويلاً: لقد رافقت جلغامش في مغامراته، وصاحَبتُ (عوليس) في ضياعه، وعِشتُ التاريخ العربي كله، ألا يكفي هذا ؟!) [14]

هل يُمكننا أن نتخيل الشاعر وهو يعاني معاناة لا يستطيع معها المشي في أنحاء جيكور، وصحته في حالة انهيار كامل ليكون مشيه أشبه بعمود ملح يسير، ولنتخيل جسدا أشبه بعمود من الملح - ليس من الصخر أو من العظم واللحم - كم خطوة بإمكانه أن يسير قبل ان يتهاوى وينهار على الأرض ؟

كيف أمشي خطاي مزقها الداء كأني عمود
ملح يِسير
أهي عامورة الغوية أم سادوم ؟
هيهات إنها جيكور:
جنة كان الصبى فيها و ضاعت حين ضاعا

---

13 المرجع نفسه ص- ص132

14 رسائل السياب. مرجع سبق ذكره ص177

آه لو أن السنين السود قمح أو صخور
فوق ظهري حملتهُنُ لألقيتُ بحملي فنفَّضتْ جيكور
عن شجيراتها ترابا يغشيها و عانقت معزفي ملتاعا
يجهش الحب، به، لحناً فلحنا
ولقاء فوداعاً (الأعمال الكاملة المجلد الأول - قصيدة جيكور أمي – 657 – 658)

وها هي مظاهر الطبيعة في جيكور تُمثل له علاجاً ، أدواته من الطبيعة مثل السّعف والسنبل والظلال

جيكور مسّي جبيني فهو ملتهب
مسّيه بالسّعف
و السنبل الترف
مديّ علي الظلال السمر تنسحب
ليلاً فتخفي هجيري في حناياها (الأعمال الكاملة المجلد الأول: - أفياء جيكور- 187)
غريب غير نار الليل ما واساه من أحد
بلا مال بلا أمل يقطّع قلبه أسفا
ألست الراكض العداء في الأمس الذي سلفا ؟
أأمكث في ديار
الثلج ثم أموت من كمد، ومن جوع ومن داء وأزراء؟
أأمكث أم أعود إلى بلادي ؟ آه يا بلدي
و ما أمل العليل لديك شح المال ثم رمته بالداء
سهام في يد الأقدار ترمي كلّ من عطفا
على المرضى وشدّ على ضلوع الجائعين بصدره الواهي
و كفكف أدمع الباكين يغسلها بما و كفا
من العبرات في عينيه - إلا رحمة الله ؟

**

ألا يا منزل الأقنان سقتك الحيا سحب
تروي قبري الظمآن
تلثمه و تنتحب ! (الأعمال الكاملة المجلد الأول : منزل الأقنان في جيكور 280)

❖ ب - جيكور واستئناس الموت عند السيّاب :

الموت هو اللغة الطاغية على شعر السياب، وكما نستعير التعبير من رينيه شار ، فإنه قد قام باستئناس الموت، وكانت جيكور بالنسبة له ذكرياته وقبره في آن واحد.

" الشاعر المعاصر يحاول- كما يقول رينيه شار- أن يضع الموت في حجمه , لا لأن الموت لا وجود له , ولا لأنه ليس بقبيح ولكن لأنه جزء من منظومة الحياة ذاتها يمكن أن يسلك في خيط ممتد مع بقية ظواهرها فيتضاءل شبحه الميتافزيقى المروع ويصبح حصاده جزءا من أديم الارض, مقوما لبقية أجزاء الحياة الأخرى..... لكن الشاعر المعاصر لا يكتفي بالكتابة عن الموت و إنما يلجأ إلى الكتابة في مواجهة الموت, إنه يريد أن يستأنسه , أن يهزمه , أن يمحوه, أن يخفف من وقع أنفاسه الثقيلة علي مسيرة الحياة, أن يناوره, وهو يفعل هذا من خلال اللغة الشعرية التي تبنى من خلال صورها عالما موازيا تتعادل فيه المتضادات وتفرغ جوانب الشحنة الزائدة ، وتبدو صورة الموت من خلالها أحيانا شاحبة جميلة " .[15]

فها هو شاعرنا يعيش لحظات التأرجح بين طرفيّ معادلة الحياة والموت، وها هو يتأرجح كذلك في معاناته بين لحظات النزع دون الوصول إلى الموت، وبين النطق دون أن يصدر عنه صوت ، وها هو يعيش لحظة الطلق ولكنه لا يرى امكانية الميلاد ، فالشاعر يظهر لنا وكأنه مسيح جديد يصلب في بغداد يبحث عمن يتوجه بإكليل الشوك.

نزعٌ و لا موت
نطقٌ و لا صوت
طلقٌ و لا ميلاد
من يصلب الشاعر في بغداد
من يشتري كفيه أو مقلتيه ؟
من يجعل الإكليل شوكاً عليه ؟ (الأعمال الكاملة المجلد الأول : العودة لجيكور 424)

وها هو يعود للتساؤل عن جيكور مهد الشاعر وموطن ذكرياته فيتساءل عن وجودها، ويبحث عن بعثها من جديد. ولكنه يدرك أن الماضي لا يعود، والماضي يشكل قبراً للشاعر، بينما يكون الشاعر قبراً للماضي ، ذلك أنه يعيش حياة يغمرها الحزن والموت المدثر بالدموع:

ايه جيكور عندي سؤال أما تسمعينه
هل ترى أنت في ذكرياتي دفينة
أم ترى أنت قبر لها ؟ فابعثيها
و ابعثيني
وهيهات ما للصّبى من رجوع

---

15 د. احمد درويش (*1997*) متعة تذوق الشعر . دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع . ص-ص *133-134*

إن ماضيَ قبري و إني قبر ماضي
موت يمدّ الحياة الحزينة ؟
أم حياة تمدّ الردى بالدموع
ما نَفضْتُ الندى عن ذرى العشب فيها (الأعمال الكاملة المجلد الأول: جيكور شابت 208- 209)

• ثالثاً: جيكور والزمن

إذا كان المكان يُشكّل بُعدا ثابتا إلا أنه بالنسبة للإنسان الذي يعيش فيه له بعد زماني ، فهو بالنسبة له ذو أبعاد ثلاثة : الماضي والحاضر والمستقبل.
وقد كان إحساس الشاعر بالزمن وعلاقته بجيكور بارزا في شعره من خلال ذكرياته ووصف حاضر المكان والتساؤل عن آفاق مستقبله . وهكذا نراه يتساءل عن علاقة الزمن بجيكور وناسها:

جيكور: ماذا ؟ أنمشي نحن في الزمن
أم أنه الماشي
و نحن فيه وقوف ؟
أين أوله
و أين آخره ؟
هل مر أطوله
أم مرّ أقصره الممتد في الشجن
أم نحن سيان نمشي بين أحراش
كانت حياة سوانا في الدياجير ؟
هل أنّ جيكور كانت قبل جيكور
في خاطر الله في نبع من النور ؟
جيكور مدي غشاء الظلّ و الزهر
سدي به باب أفكاري لأنساها
و أثقلي من غصون النوم بالثمر (الأعمال الكاملة المجلد الأول: أفياء جيكور 188)

أ-الزمن الماضي

ذكريات المكان في الزمن الماضي لدى السيّاب هي صورة الزمن الجميل الذي يحمل دوما ذكرى صباه في جيكور التي كانت بالنسبة له جنة :

هيهات إنها جيكور
جنة كان الصبى فيها و ضاعت حين ضاعا
آه لو أن السنين السود قمح أو صخور

فوق ظهري حملتهن لألقيت بحملي فنفضت جيكور
عن شجيراتها ترابا يغشيها و عانقتُ معزفي ملتاعا
يجهش الحب به لحناً فلحنا
و لقاء فوداعا (الأعمال الكاملة المجلد الأول: جيكور أمي 657)

وتنعكس مشاعره الحزينة على صورة جيكور التي يُقدمها لنا عجوزاَ ولّى صِباها وأصبح هواها خانقاً يخنق الأنفاس.

و جيكور شابت وولى صباها
و أمسى هواها
رمادا إذا ما
تأوّهن هزّته ريح
أثارته حتى ارتمى في صداها
هباءَ و ذرّا تضيق الصدور
به عن مداها (الأعمال الكاملة المجلد الأول: جيكور شابت - 207)

ب - الزمن الحاضر :

يتجلّى وصف المكان في الزمن الحاضر لدى السيّاب، باستخدام النداء لجيكور وهو يخاطبها متسائلاً إما عن وجودها في ذكرياته، أو أنها قبر لذكرياته الجميلة التي يطالب فيها جيكور أن تبعث هذه الذكريات من جديد وأن تبعث الشاعر نفسه.

ايه جيكور عندي سؤال أما تسمعينه
هل ترى أنت في ذكرياتي دفينة
أم ترى أنت قبر لها ؟ فابعثيها
و ابعثيني
وهيهاتِ ما للصّبى من رجوع
إن ماضيَ قبري و إني قبر ماضي (الأعمال الكاملة المجلد الأول: جيكور شابت 208- 209)

ج - الزمن الاتي/ المستقبل:

كانت رؤية المكان في الزمن الاتي لدى السيّاب مقرونة بالموت والحلم بالبعث من جديد ، حيث معاناته من المرض العضال وإحساسه الفاجع بالموت بل وقرب موته تفرض هيمنة مثل هذه الصورة . ويُسخِّر التراث الديني المتمثل ببزوغ كوكب يُبشر بميلاد المسيح، ويصبح هذا معادلاً لحلمة في العودة إلى جيكور لتكون عودة لروحه الظامئة وجسده المتعب.

على جواد الحلم الأشهب
و تحت شمس المشرق الأخضر
في صيف جيكور السخي الثري
أسريت أطوي دربي النائي
بين الندى و الزهر و الماء
أبحث في الآفاق عن كوكب16
عن مولد للروح تحت السماء
عن منبع يروي لهيب الظماء
عن منزل للسائح المتعب (الأعمال الكاملة المجلد الأول: العودة لجيكور 421-422)

**

وهكذا تكون جيكور بالنسبة له هي ملهمة أشعاره، وتكون موعداً لموته، وتكون موعداً لنعشه وقبره.

أين جيكور؟
جيكور ديوان شعري
موعد بي ألواح نعشي و قبري. (الأعمال الكاملة المجلد الأول : جيكور شابت - 207)

وتسيطر رؤيته المتشائمة لذاته التي لا تعرف الفرح، فقلبه لن يخفق بالألحان ، بل لن يخفق فيه سوى الدود، ومقابل هذه الصورة الموحشة، فإنه يظل يحمل مقابل الموت الفردي صورة أخرى لجيكور (وطنه) التي ستولد من جديد.

جيكور ستولد لكنّي
لن أخرج فيها من سجني
في ليل الطين الممدود
لن ينبض قلبي كاللحن
في الأوتار
لن يخفق فيه سوى الدود (الأعمال الكاملة المجلد الأول: تموز جيكور 412)

16 ويزغ كوكب عرف منه المجوس أن المخلص قد ولد.

• رابعاً: أبعاد فنية

أ - الصورة في القصائد الجيكورية

ينقل إلينا السيّاب عاطفته بصور مبدعة تتفاعل فيها الصور المعتمدة على التشخيص وتراسل الحواس، ويتوسل بالغموض أحياناً في صور تقوم على استدعاء الموروث والأسطورة، لتقدم لنا الذات الفنية وكأنها شيء آخر غير الذات الشخصية. إن الصورة الحسية التي يقدمها الشاعر لا تبدو لنا أحياناً صوراً قابلة للتفسير، ولا شك أن استخدامه لتراسل الحواس يجعل هذه الصور شيئاً يُحَس أكثر من أن يُفهم . ليَعبّر بذلك عن عاطفته المتقدة التي يرى أنه يجب ألا يحدّها لفظ قاصر أو يصورها بيان مبتور. يقول السياب :

(من العار، على أفكار الشعراء، يوم تُلقي عليها العاطفة ظلالها المتزاحمة المتفانية، المتلاقية، المتفارقة، المتعانقة، المتجافية، ظلالها المجنونة، بنت الاعصار، والليل العربيد، والموت والحياة، ظلالها الراقصة على رقى إبليس؛ من العار عليها أن يحدّها لفظ قاصر أو يصورها بيان مبتور. كنت، في كثير من الأحيان ، تأخذ عليّ الغموض في شعري، ولكني أدركت الآن، أن ذلك الغموض كان العقدة المسحورة التي أوجدتها يد العاطفة. في ساعة جنون، إذا انحلت فقد الطلسم ما كان يحمل من تمتمات عبقر) [17]

لننظر إلى هذه الصور التي يقدمها متتابعة ، تحمل الأمل لجيكور مقابل ألم الشاعر حيث ستولد جيكور من جرحه، ولن يخرج من سجنه ، سيمثل هذا الألم اعتبار الشاعر ضحية لجيكور أو فداء لها. فجيكور ستولد، والنور سيورق فيها كالشجرة ، والبيدر سيفيض بالقمح ، وبيوت القرية ستتماوج أنغاماً حلوة، وذلك كله سيولد من جرح الشاعر ومن غصة موته حيث ستولد جيكور من جديد !

النور سيورق و النور
جيكور ستولد من جرحي
من غصة موتي من ناري
سيفيض البيدر بالقمح
و الجرن سيضحك للصبح
و القرية دارا عن دار
تتماوج أنغاما حلوة
و الشيخ ينام على الربوة ؟
و النخل يوسوس أسراري

---

17 رسائل السياب مرجع سبق ذكره ص. *50*

جيكور ستولد لكنّي
لن أخرج فيها من سجني (الأعمال الكاملة المجلد الأول: تموز جيكور 411-412)

وتغرب الشمس كأن السماء
حقل يمصّ الماء
أزهاره السكرى غناء الطيور
ناحلة كالصدى
أنغامه البلور
كأن فيها مدى
يجرحن قلبي فيستنزفن منه النور
وتغرب الشمس و هذا المساء
أمْطُر في جيكور
أمْطُر ُظلا نَثَّ صمتاً مساء
غاف على جيكور
و الليل في جيكور
تهمس فيه النجوم
أنغامها تولد فيه الزهور
و تخفق الأجنحة
في أعين الأطفال في عالم للنوم مرت غيوم
بالدرب مبيضا بنور القمر
تكاد أن تمسحه
تسرق منه الزهر (الأعمال الكاملة المجلد الأول : جيكور وأشجار المدينة 633- 634)
ما نفضت الندى عن ذرى العشب فيها،
ما لثمت الضباب الذي يحتويها
جئتها و الضّحى يزرع الشمس في كل حقل و سطح
مثل أعواد قمح
فر قلبي إليها كطير إلى عشّه في الغروب
هل تراه استعاد الذي مر من عمره كل جرح
و ابتسام ؟
أبعد انطفاء اللهيب
يستطيع الرماد اتّقادا ؟ و من أين ؟ من أيّ جمرة ؟
يا صباي الذي كان للكون عطرا و زهوا و تيها (الأعمال الكاملة المجلد الأول : جيكور شابت - 205)
آه جيكور جيكور
ما للضحى كالأصيل
يسحب النّور مثل الجناح الكليل ؟
ما لأكواخك المقفرات الكئيبة
يحبس الظل فيها نحيبه ؟

أين أين الصبايا يوسوسن بين النخيل
عن هوى كالتماع النجوم الغريبة
أو يجرّرن أذيالهن التي لونتهن أقمار صيف
أو شموس خريفيّة عند شط ظليل
و الشفاة ابتسامات حب و خوف؟ (الأعمال الكاملة المجلد الأول : جيكور شابت - 206)
كركرات المياه التي كسّر الشمس منها ارتجاف
و الأنين الذي منه كنا نخاف
صاعدا مثل مدّ تنز القبور
عنه و الشمس تمتصّ من كل نهر
و درابك في الأرض تنقرهنّ البذور
و هي تنشقّ في كل فجر
ذكريات كما يترك الصوت من ميّت
في خيال رنينه
مثل ناي تشظّى و أبقى أنينه (الأعمال الكاملة المجلد الأول : جيكور شابت -208)

في صور التشخيص تصبح الأشياء ذات صفات بشرية، ويصير للمكان سمات إنسانية ، إذْ تصبح جيكور طبيباً يعالج جبين الشاعر الملتهب، ويصبح الحلم يداً مرتعشة ، وينام الماء في الشاطئ والسحب كأهداب طفل والحلم يرتعش:

جيكور مسّي جبيني فهو ملتهب
مسّيه بالسّعف
و السنبل الترف
مديّ علي الظلال السمر تنسحب
ليلاً فتخفي هجيري في حناياها
**
ظل من النخل أفياء من الشّجر
أندى من السّحر
في شاطئ نام فيه الماء و السّحب
ظل كأهداب طفل هدّه اللعب
نافورة ماؤها ضوء من القمر
أودّ لو كان في عينيّ ينسرب
حتى أحسّ ارتعاش الحلم ينبع من روحي و ينسكب (الأعمال الكاملة المجلد الأول: أفياء جيكور 187)

ب -التراث الديني والتراث الأسطوري في القصائد الجيكورية

لعل من أهم ريادات السيّاب بين الشعراء العرب توظيفه التراث الديني والتراث الأسطوري ، وقد كان هذا واضحاً في العديد من قصائده، بل ومن عناوين قصائده ديوانه مثل : أساطير / سفر أيوب / قالوا لأيوب / القصيدة والعنقاء / مرتية الالهة/ من رؤية فوكاى / المسيح بعد الصلب / مدينة السندباد/ ارم ذات العماد وهناك قصائد عديدة وظف فيها التراث الديني والأسطورة في مثل قصيدة إلى جميلة بو حيرد / مرثية الآلهة / في غابة الظلام / القن والمجرة .

ويقول السيّاب (.. فليس شرطاً أن نستعمل الرموز والأساطير التي تربطنا بها رابطة من المحيط أو التاريخ أو الدين، دون الرموز والأساطير التي لا تربطنا به إحدى هذه الوشائج، ومن يرجع إلى قصيدة أيليوت الرائعة "الأرض الخراب"، يجد أنه استعمل الأساطير الوثنية الشرقية، للتعبير عن الأفكار المسيحية وعن قيم حضارية غربية.[18]

وينتقد علي عشري زايد الشخصيات الأسطورية الأجنبية التي وظفها السياب في شعره ، إذْ يلاحظ أنها كانت مقحمة في قصائده يقول في ذلك :

(وقد كان السيّاب من أكثر شعرائنا ولعاًً باستخدام شخصيات الأساطير الأجنبية ، حيث استخدم في شعره شخصيات من تراثات شتى أمثال: "عشتار ' وبعل ، وسيزيف ، ونرسيس ، وميدوزا ، وكونغاي ، والبابيون ، وهرقل ، وغنيميد ، واوملب ، وأتيس ، والعازر ، وزيوس وأدونيس ، وسربروس ، وأوديب ، وجوكست ، وافروديت ، وهيلين ، وأبولو ، وارفيوس ، وايكار ، وعوليس ، وبرسفون ، وأخيل ، والسيرين" وغيرها.ونتيجة لغربة مثل هذه الشخصيات على وجدان شاعرنا ذاته ، وعلى تجربته، فإنها كانت تبدو دائماً مقحمة على القصيدة ، ومفروضة عليها من الخارج ، وليست عنصراً ذاتياً من نسيجها العام ".)[19]

إن الشاعر الكبير الذي يحاول أن يرسم صورة متماسكة للحياة بأسرها يخلق دائماً أساطير جديدة يصف عن طريقها الوجود الإنساني، ويختبر الأساطير القديمة ليرى مدى قدرتها على وصف هذا الوجود. وإذا كانت نظم العصر الذي يعيش فيهه كافية للتعبير عن المعنى الحديث للحياة فإن مهمة الشاعر حينئذ تصبح أبسط بكثير مما لو كانت على العكس منذلك. ولنأخذ النظم الدينية مثلاً. فإن النظام الديني هو عبارة عن مجموعة متراكمة من التجارب حمّلتها الأجيال العديدة الكثير من المعاني والارتباطات، وفسّرتها تفسيرات مختلفة[20].

---

18 رسائل السيّاب مرجع سبق ذكره ص. *83*)

*19*الدكتور علي عشري زايد (*1997*)استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر دار الفكر العربي. ص- *281*

20(ستيفن سبندر : الحياة والشاعر **ترجمة دكتور مصطفى بدوي راجعته دكتورة سهير القلماوي .القاهرة – مكتبة الأنجلو المصرية** ص *76*)

أمّا السيّابُ الإنسانُ والشاعرَ، فقد وجدَ في الأسطورة، بديلا رآهُ يُعبّر عن حالة حضاريّة وقلقٍ نفسيٍ، وكان تعويضاً فنياً يعتمد عليه .

"لهذا كانت الأسطورةُ في شعره تجسّدُ حالةَ الانكسارات، وما يجتاحُ الضميرَ الإنساني من تناقضات وأزمات حضاريّة، وتعويضاً، أو بديلاً عن فكرٍ أيديولوجيٍ مفقود بالخيبة (في بداءة استخدامها)، لكنّ تواصله مع عالمها السحريِ جعله يطمئنُ إلى أنّها خيرُ إنجازٍ فنيَ تحقّقُهُ القصيدةُ التفعيليّةُ توظيفاً في التعبيرِ حينَ يحمّلُها المبدعُ الفعلَ الخلّاقَ".[21]

ولكن هذا لا ينسحب على كل شخصياته الأسطورية ، فبعضها جاء في تراثنا الديني مثل قصة "سدوم وعمورة" يقول الشاعر:

كيف أمشي خطاي مزقها الداء كأني عمود
ملح يسير
أهي عامورة الغوية أو سادوم ؟
هيهات إنها جيكور
جنة كان الصبى فيها و ضاعت حين ضاعا
آه لو أن السنين السود قمح أو ضخور
فوق ظهري حملتهن لألقيت بحملي فنفضت جيكور
عن شجيراتها ترابا يغشيها و عانقت معزفي ملتاعا (الأعمال الكاملة المجلد الأول - جيكور أمي - 657)

وقد ذُكِرَتْ قصة سدوم وعمورة في القرآن الكريم في سورة القمر والشعراء والأعراف والعنكبوت والذاريات والحجر وهود ، والقصة جاءت في التوراة في سفر التكوين (18) والتكوين (19) .

واستخدم الشاعر شخصية المسيح عليه السلام / لتمثل الصلب والفداء والحياة من خلال الموت.

واستخدم الشاعر رمز إلهُ الخصبِ : تمّوز وأدونيس وأوزوريس. وكانَ إلهُ الخصبِ " تمّوز" عند البابليينَ وكان عند المصريينَ " أوزوريس"، وكان عند الفينيقيين والإغريق هو الإله "أدونيس".

وهي كلّها رموزٌ ذاتُ دلالة دوريّة واحدة في النماء، حيثُ يتمُّ بوساطتها التحكّمُ بدورة الحياة في الطبيعة من تعاقبِ الفصول في دورتها،(...) وكانت هذه "الآلهة" رمزاً للقوّة التي تدفعُ الطبيعةَ لتجدّدَها بعدَ الموت. لهذا كان اندفاعُ السيّاب وراءَ رمزِ " تمّوزَ" له ما يُبرّرُه في تجربته الشعريّة، فهو الرمزُ الذي تتوحّدُ فيه كلّ ُ رُموزِ التضحية من أجلِ إعادة الحياة ودفعِ الموت على نحوٍ مأساويٍ حادٍ، إذ أنّ مقتلَ "تموزَ" بنابِ خنزيرٍ برّيٍ، ونُواحَ "عشتار" عليه له ما يماثلُهُ في عالمِ اليومِ الذي ينتظرَ تموزَ جديداً.[22]

وبالنسبة لشاعر مثله كان ملتزماً أيدلوجياً ، وله تجربة معاناة خاصة مع المرض، كانت موضوعات الحياة اليومية تجعله يستخدم رموزاً تحمل معاني التضحية والألم مثل استخدام رمز قابيل :

---

21 د. عبد الرضا علي الأسطورة في شعر السيّاب صحيفة المثقف (العدد: 2001 السبت 14 / 01 / 2012) http://almothaqaf.com/index.php/araaa/59303.html

22 المرجع نفسه

كان يومي كعام تعد المسرّة
فيه نبضا لقلبي تفجّر منها على كلّ زهرة
كانت الأرض تلقى صباها لأوّل مرّة
كان قابيلها بذرة مستسرة
كان للأرض قلب أحسّ به في الدروب
في البساتين في كل نهر يروّي بنيها (الأعمال الكاملة المجلد الأول : جيكور شابت - 206)
من الذي يسمع أشعاري ؟
فان صمت الموت في داري (الأعمال الكاملة : العودة لجيكور 422)

ويستخدم الشاعر كثيراً رمز الصليب وتاج الشوك الذي كَلّل رأس المسيح ، ليعبّر عن حالته التي يرى فيها رمزاً لمعاناته إذ يقول :

و الليل في ناري
من الذي يحمل عبء الصليب
في ذلك الليل الطويل الرهيب
من الذي يبكي و من يستجيب
للجائع العاري
من ينزل المصلوب عن لوحه ؟
من يطرد العقبان عن جرحه ؟
من يرفع الظلماء عن صبحه ؟
و يبدل الأشواك بالغار[23]
أواه يا جيكور لو تسمعين !
أواه يا جيكور لو توجدين !
لو تنجبين الروح لو تجهضين
كي يبصر الساري
نجما يضيء الليل للتائهين (الأعمال الكاملة المجلد الأول: العودة لجيكور 423)

ويستخدم الشاعر رمزاً دينياً من التراث الإسلامي يردنا إلى قصة هجرة الرسول واختبائه في غار حراء إذ يقول :
هذا حرائي[24] حاكت العنكبوت
خيطا إلى بابه
يهدي إلي الناس إني أموت
و النور في غابه
يلقي دنانير الزمان البخيل
من شرفة في سعفات النخيل

---

23 وألبسوا المسيح تاجاً من الشوك ... سخرية به.

24 حراء ، الغار الذي هبط فيه الوحي على النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، حين هاجر النبي إلى المدينة اختبأ – والمشركون جادون في أثره- في غار حاكت العنكبوت بيتها على بابه فبدا مهجوراً ولم يهتد المشركون إلى مخبأ سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

جيكور يا جيكور خلّ و ماء
ينساب من قلبي
من جرحي الواري
من كل أغواري
أواه يا شعبي
جيكور يا جيكور هل تسمعين ؟
فلتفتح الأبواب للفاتحين
و لتجمعي أطفالك اللاعبين
في ساحة القرية هذا العشاء
هذا حصاد السنين :
الماء خمر و الخوابي غذاء[25]
هذا ربيع الوباء (الأعمال الكاملة المجلد الأول: العودة لجيكور 426)

ويخاطب الشاعر جيكور مستفيداً من استخدام رَمزَيّ أبي زيد الهلالي والسندباد في قصيدته ليحُمل بعدهما الرمزي دلالات تحيلنا إلى الارتحال والمغامرة والمعاناة :

رُدِّي إليّ الذي ضيّعتُ من عمري
أيّام لهوي و ركضي خلف أفراس
تعدو من القصص الريفي و السّمر
ردي أبا زيد لم يصحب من الناس
خلاّ على السفر
إلاّ و ما عاد
ردي السندباد و قد ألقته في جزر
يرتادها الرخ ريح ذات أمراس (الأعمال الكاملة المجلد الأول : أفياء جيكور 189)

" والسندباد كما تصوره ألف ليلة وليلة هو ذلك البطل الأسطوري المغامر الذي لا يهدأ لـه بال، لا يكاد ينتهي من رحلة حتى يشرع في أخرى، لذا فهو يمتاز عن غيره من الأبطال برحلاته الطويلة عبر البحار والجزر، وارتياده آفاقاً غريبة وعوالم مجهولة تقول عنها المرويات الشعبية الجزائرية "إلي رايح إليها مفقود ولي راجع منها مولود". وعلى الرغم من تلك الأخطار والمخاوف المهلكة التي كانت تسد طريقه وتدفع به إلى الموت بالغرق أو الاختطاف والأسر في الجزر النائية، فإنه كان يعود دائماً من رحلاته ظافراً منتصراً محملاً بالأموال والكنوز العجيبة. [26]

---

25 أحال المسيح الماء إلى خمر فشرب الحاضرون.

26 الدكتور كاملي بلحاج(*2004*) أثر التراث الشعبي في تشكيل القصيدة العربية المعاصرة(قراءة في المكونات والأصول) دمشق - منشورات اتحاد الكتاب العرب .ص -*91-92*

وقصيدة " مرثية جيكور " مثقلة باستخدام الرموز الدينية والأسطورية وينطبق عليها قول علي عشري زايد فيما يتعلق بالمبالغة في استخدام السياب للرموز الدينية والأسطورية إذ أنها جاءت مُترعة بها ، ونجد فيها خليطاً من الشخصيات المستمدة من التراث العربي والمسيحي والإغريقي، فيها صليب المسيح وعذراء (بيت لحم) والرشيد والبسوس ويزيد وشمر وهومير وأبو زيد الهلالي وفوكاي وهود

يا صليب المسيح ألقاك ظلا فوق (جيكور) طائر من حديد
يا لظل كظلمة القبر في اللون و كالقبر في ابتلاع الخدود
و التهام العيون من كل عذراء كعذراء (بيت لحم) الولود
مرّ عجلان بالقبور العواري من صليب على النصارى شهيد
فاكتست منه بالصليب الذي ما كان إلا رمز الهلاك الأبيد
لا رجاءً لها بأن يُبعَث الموتى و لا مأملٌ لها بالخلود (الأعمال الكاملة المجلد الأول: مرثية جيكور403)

ظلّ ذاك الضجيج كالجيفة الحبلى بما ليس غير عقم الولود
ثمة التمّ في كرات من النار فألقى عليك صمت اللحود
لا عليك السلام يا عصر (تعبان بن عيسى) وهنت بين العهود
ها هو الآن فحمة تنخر الديدان فيها فتلظي من جديد:
ذلك الكائن الخرافيّ في جيكور (هومير)[27] شعبه المكدود
جالس القرفصاء في شمس آذار و عيناه في بلاط (الرشيد)
يمضغ التبغ و التواريخ و الأحلام بالشدق و الخيال الوئيد
ما تزال (البسوس) محمومة الخيل لديه و ما خبا من (يزيد)
نار عينين ألقتاها على (الشمر)[28] ظلالا مذبحات الوريد
كلما لز شمره الخيل أو عرى أبو زيده[29] التحام الجنود
شد راحا و أطلق المغزل الدوّار يدحوه للمدار الجديد
لا عليك السلام يا عصر تعبان بن عيسى و هنت بين العهود
أنت أيتمت كل روح من الماضي و سودت آلة من حديد
تسكب السم و اللظى لا حليب الأم أو رحمة الأب المفقود (الأعمال الكاملة المجلد الأول: مرثية جيكور 407-408)
سلم في الحضيض أعلاه مرقاه انخفاض و إن بدا كالصعود
حدقت منه في الورى مقلتا (فوكاي) تستشرقان أيام (هود)
و المسيح المبيع بخسا بما لو بيع لحما لناء عن تسديد!
حدّقي حيث شئت يا عين فوكاي المدمّاه من مداك المديد!
فهي سوق تباع فيها لحوم الآدميين دون سلخ الجلود:

27هومير الشاعر الإغريقي الأعمى
28الشمر قاتل الحين، وتصوره القصص مرتدياً ثياباً حمر اللون.
29 أبو زيد الهلالي

كل أفريقيا و آسية السمراء ما بين زنجها و الهنود
و اشتري لحم كلّ من نطق الضاد تجار تبيعه لليهود!
هكذا قد أسف من نفسه الإنسان و انهار كانهيار العمود
فهو يسعى و حلمه الخبز و الأسمال و النعل و اعتصار النهود!
و الذي حارت البرية[30] فيه بالتآويل كائن ذو نقود! (الأعمال الكاملة المجلد الأول: مرثية جيكور 409)

ج - اللغة والموسيقى في القصائد الجيكورية

اللغة لدى السيّاب كما هي عند الشعراء المجايلين له، لا ينأى قاموسها الشعري كثيراً عن مفردات الحياة اليومية، ولكنه يأسر اللغة من خلال توظيفها في صور غير مألوفة، ومن خلال الموسيقى وتحميلها عاطفة دفّاقة. وتحمل مفردات اللغة عند السيّاب ما هو أبعد من الدلالة المعجمية، فهي مُحمّلة بالرموز ذات الدلالة.

الموسيقى عند السياب :

ولا يفوتنا أن نشير إلى أن الموسيقى لدى السيّاب موسيقى تعتمد على الإيقاعين الداخلي والخارجي وهي تخفت أحياناً وتصخب أحياناً أخرى ، والإيقاع بلا شك مرتبط بالعاطفة والمضمون الذي يعبر عنه، ولا قيمة للإيقاع إذا كان لا يرتبط بالعاطفة والمضمون ، لأن ذلك سوف يجعله مجرد قيمة جمالية خارجية يوفر جرساً موسيقياً خارجياً بلا انفعال . فالنمط الإيقاعي الذي تستخدمه يجب أن يوظف لإثارة الانفعال وتحريك العاطفة. [وكما يقول على عشري زايد عن بناء القصيدة :

(والموسيقى في الشعر ليست حلية خارجية تضاف إليه ، وإنما هي وسيلة من أقوى وسائل الإيحاء ، وأندرها على التعبير عن كل ما هو عميق وخفي في النفس مما لا يستطيع الكلام أن يعبر عنه ، ولهذا فهي من أقوى وسائل الإيحاء سلطاناً على النفس ، وأعمقها تأثيراً فيها)[31]

---

30 قال المعري : والذي حارت البرية فيه حيوان مستحدث من جماد .
31 الدكتور علي عشري زايد (*1978*)عن بناء القصيدة العربية الحديثة. القاهرة مكتبة دار العلوم. ص(162)

المصادر والمراجع

- احمد درويش (دكتور) (1997) متعة تذوق الشعر . دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع .
- بدر شاكر السياب (*1986*) ديوان يدر شاكر السياب المجلد الأول بيروت : دار العودة .
- حبيب مونسي(دكتور) 2001:فلسفة المكان في الشعر العربي قراءة موضوعاتية جمالية دمشق: اتحاد الكتّاب العرب
- ستيفن سبندر : الحياة والشاعر ترجمة دكتور مصطفى بدوي راجعته دكتورة سهير القلماوي .القاهرة – مكتبة الأنجلو المصرية
- عبد الرضا علي (دكتور) الأسطورة في شعر السيّاب صحيفة المثقف (العدد: *2001* السبت *14* / *01* / *2012*) *http://almothaqaf.com/index.php/araaa/59303.htm*
- علي عشري زايد (دكتور) (1978)عن بناء القصيدة العربية الحديثة. القاهرة مكتبة دار العلوم.
- علي عشري زايد(دكتور) (1988) قراءات في الشعر العربي المعاصر . القاهرة : دار الفكر العربي
- علي عشري زايد(دكتور) (1997)استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر دار الفكر العربي. ص- 281
- علي ياسين عبيدات (2014):زوايا من نصيب جيكور في شعر السياب (في طفولة السياب المبكرة)

http://rashashnews.com/2014/02/18/%D8%B2%D9%88%D8%A7%D9%8A%D8%A7%D9%85%D9%86%D9%86%D8%B5%D9%8A%D8%A8%D8%AC%D9%8A%D9%83%D9%88%D8%B1%D9%81%D9%8A%D8%B4%D8%B9%D8%B1%D8%A7%D9%84%D8%B3%D9%8A%D8%A7%D8%A8-%D9%81%D9%8A-%D8%B7%D9%81/

- كاملي بلحاج (دكتور) (2004) أثر التراث الشعبي في تشكيل القصيدة العربية المعاصرة(قراءة في المكونات والأصول) دمشق - منشورات اتحاد الكتاب العرب .
- ماجد السامرائي جمع وتقديم (1975) رسائل السياب. بيروت : دار الطليعة
- محمد رضوان (2001) :مملكة الجحيم دراسة في الشعر العربي المعاصر (الحكاية نموذجاً) دمشق : منشورات اتحاد الكتاب العرب